



في مفارقة مثيرة للدهشة، تحتفل بعض شعوب العالم بصبح مفرط، وعلى مدى يومين، بعيداً خاصاً للموتى، يتفنون في طقوسه وترتيباته التي تضاهي الاحتفال بالولادة فرحاً، صخباً وامتلاءً بالحياة. كيف لا، وهم يعتقدون أن أرواح موتاهم الذين يشتاقون لكل تفاصيلهم، تزورهم خلال هذين اليومين .

في الأول والثاني من نوفمبر/ تشرين الثاني كل عام، يحتفل المكسيكيون بشكل رئيسي، وشعوب عديدة في أميركا اللاتينية وإسبانيا، بـ"يوم الموتى"، وهو احتفال تقليدي ترجع بداياته إلى حضارات المايا والأزتيك والناهوا .

لا يبكي المحفلون موتاهم، ولا يلبسون الحداد على أرواحهم، بل يستحضرونهم بإعادة إحياء كل ما كانوا يحبونه من طعام ولباس وموسيقا ورقص. ينظفون غرف الراحلين ويزبون الغبار العالق على صورهم، وعلى حافة الجراح التي تركوها في حياة وأرواح أحبائهم، ثم يحضرّون الأطعمة المحبولة بالمحبة والمطهوة على نار الفقد المستمرة داخل النفوس، والتي يخفّها أهالي المفقودين، ويرتدون أقنعة الفرح بدلاً منها. يرقص الأحياء كما كان يرقص الراحلون حين كانت الحياة تدب في أوصالهم، ويرفعون صوت الموسيقا التي كان الموتى يحبونها، والتي يعتقدون أنها تسهل على أرواح مفقوديهم العبور إلى زيارة أهاليهم. يرسم المحفلون على وجوههم وأجسامهم أشكال الجماجم والظامان ويدعون جيرانهم وأصدقاءهم الذين لم يفتقدوا عزيزاً منذ زمن طويل، يسيرون معًا في الشوارع، ويتجمّعون في المقابر لإتمام طقوس الاحتفال. يزيّنون البيوت بالهيكل العظيم احتراماً للحال التي آلت إليها أجساد من فقدوا، ويضعون صور الموتى في إطارات جديدة يوزّعونها في أرجاء البيت. يحيون أمواتهم بالذكرى والفرح، فقط كي لا يموتوا .

تُرى، لو قدر للسوريين، بعد سنوات، الاحتفال بهذا العيد، فهل ستتسع البيوت لصور من فقدت؟ هل سيخلو بيت واحد من

الموسيقا والطعام؟ هل ستجد العائلات المنكوبة جاراً أو صديقاً لم يذق طعم الفقد منذ زمن كي يدعوه؟

يقول المكسيكيون إن أرواح الأطفال تزورهم في اليوم الأول من العيد، فإن حصل واحتفل السوريون به، أي ازدحام للأرواح ستتحمل سماء الغوطة الدمشقية التي لم تنس بعد رائحة الكيميائي، ولم تشف بعد من آثار الأقدام الصغيرة التي عبرتها باتجاه الجنة؟ وعندها، هل ستكتفي حلوي العالم لتكون طعاماً لأطفال سوريا الراحلين؟ وإذا لم تكتفِ، فأي طعام سيقدم أهالي الأطفال الذين ولدوا وماتوا تحت الحصار، قبل أن يعرفوا أن في الحياة ما تسمى فواكه أو شوكولاتة؟

يعتقد الإسبان أن تذكر الأهالي موتاهم واهتمامهم تحديداً بوضع صورهم في البيت يحمي أرواح الموتى من السقوط في العدم، إذ وحده نسيان الموتى ما يقتلهم. فلو احتفل السوريون اليوم بهذا العيد، ماذا ستفعل آلاف العائلات التي تجهل مصير أبنائها؟ ستأكلهم الحيرة والرعب، فمجرد وضع صور المفقودين في الإطارات هو بحد ذاته اعتراف موجع وصعب برحيتهم، لكن الإصرار على الإنكار أيضاً قد يقود أرواح الموتى منهم إلى العدم، وعندها قد لا يعودون.

سوريون آخرون أيضاً لن يجدوا طريقة لاستحضار أرواح موتاهم، إذ إنهم لا يعلمون في أي أرض أو مقبرة جماعية دُفنتوا، لكنهم قد يطلدون الموسيقا لتبث عنهم في طول البلاد وعرضها، فهل سيسمع العالم صوت عوائدها حين لا تجدهم؟ قد يأتي السيّاح إلى سوريا في اليومين الأولين من نوفمبر/ تشرين الثاني بعد أعوام، للتمتع بأجواء العيد، لكنهم عندها لن يجدوا أحداً في البيوت، سيكون السوريون جميعاً متذكرين في هيكل عظمية وجماجم، هائمين في المقابر والطرقات والحدائق وحطام الأبنية المهدمة والأراضي المفتوحة، بحثاً عن قبور موتاهم، عليهم يستطيعون الغناء لهم وإطلاق أرواحهم من سجونها.

المصادر:

العربي الجديد